الشخصيات التى أقدرها

الجاحـــــظ ...

فى رأى الاستاذ عبد العزيز البشرى

الدائع عن الأستاذ الجليل الشيخ عبد العزيز البشرى ، أنه صاحب مذهب فى الأسلوب اللاذع ، وأن هذا الأسلوب قلما يستطيع أن يجاريه فيه أحد كتابنا اليوم ، وهذا حق كل الحق ؛ ففى أسلوب « البشرى » نزوع إلى التهكم ، ونزوع إلى استغلال أو ضار المجتمع ليفضحها ويكشف عنها الستار ؛ ولكن الأستاذ متى أراد أن يخلو إلى الجد فيما يكتب عنه ، وما يبحث فيه ، كان الشأن لديه أن يبلغ الأوج جودة ، وحسن أداء ، وسداد رأى ، وروعة تفكير ، لأنه من أولئك القلائل الذين لا ينطقون إلا بما يعرفون ، ولا يصدرون فيما يكتبونه إلا عن دراسة مستفيضة واستقراء موفور .

ولقد عرفت محافل الأدب للأستاذ البشرى ، أنه من قادة الفكاهة والتندر ، وهذا حق أيضاً ؛ لأن مجلس الأستاذ قلما يحتمل معه هذا القتام الذى تحتويه مجالس العلم البالغة الجمود ، وليست أحاديث الأستاذ البشرى مطبوعة بطابع الصغار واللهو الفاضح ، وإنما هى قابعة دائماً فى صميم الوقار .

وقد يفهم الناس فى الأستاذ البشرى أن احتفاله بالفكاهة وليد استهتار منه ، ولكننا نذيع اليوم فى كثير من الصراحة والصدق ، أنه لا ينأى بجانبه عن شعيرة من شعائر الدين ، وأنه يستقبل المحراب فى يومه خمس مرات . . ! !

هذا هو الأستاذ « البشرى » الذى يحمل اليوم قلم « الجاحظ » ليجول به فى كل موطن ، وفى كل موضع يريد . . . ! !

وإذا كان لقاء الأستاذ فى هذا العهد الأخير قد أضيف إلى الآمال المنشودة من جمهور المتأدبين ، لأنه يميل الآن إلى العزلة والانفراد ، فكيف بنا نستطيع أن نقدر السعادة التى تلقفناها فى تلك الساعة الهانئة التى قضيناها معاً فى دار « المعرفة » ، لنصرف عنا وجوه الأحزان ، ونمضى إلى مرحة الإمتاع الروحى الخالص ؟ ، كانت ساعة نادرة ، وكان لقراء « المعرفة » فيها الحظ الموفور ؛ فقد سألنا الأستاذ الجليل عن « الشخصية التى يقدرها » ، فكان جوابه مايلى :

الجاحظ

« أقدر الجاحظ ؛ وأستطيع أن أؤكد لك بأنى أناثره وأرتضى صحبته ، وأفاخر بها وأحرص عليها »

« لقد عرفته من أمد بعيد ؛ عرفته من الساعة التى أدركت فيها أثر القراءة القائمة على الدراسة والتحقيق ؛ وكلما زادت قراءتى له ، كلما استوعبت فيه ألوانا جديدة من الروعة والجلال والإمتاع ».

« إن أسلوب الجاحظ قد أربى على الغاية : جودة وأناقة ورشاقة وجمال توقيع ؛ وهو الأسلوب الجزل السهل الذى ينشده لنفسه كل كاتب يريد الكمال لقلمه والإبداع فى إنتاجه »

« وإن الجانب الفكاهى فيه ليصور لنا مبلغ قدرة الرجل الفائقة على التهكم ، كلما أراد أن يسخر ، وكلما شاء أن تحز نقداته فى الرقاب »

« ولست أعلم أن هناك كاتباً قبله استطاع أن يبلغ هذه الجودة فى كشف السوءآت الاجتماعية هذا الكشف الرائع ، حتى يعلم الناس مقدار ما فيها من بشاعة وتشويه »

« وأما تفكير الجاحظ فقد كان فى جملته تفكير الرجل الذى تهيأت له دراسة الحياة دراسة فضفاضة ، فلم أقع له على موضع عقيم أو رأى سقيم ؛ وإنما كانت كل آرائه صادرة عن وحى الحق الصريح ».

« ولم يكن الجاحظ من هؤلاء الذين يكتفون بالعيش فى ظل السالفين ، أعنى أنه لم يكن جامداً ولا صلباً لا يتحرك ؛ وإنما كانت روحه النفاحة تدفع إليه حياة رائعة توفر له الابتكار : فهو أول من جاء للمنطق بأقيسة جديدة لم يألفها عصره ، وهو أول من بحث العلم على ضوء اختباراته دون أن يقف عند هذه المثل التى وقف عندها جمهور الباحثين »

« ثم هنالك جانب يدعونى إلى تقدير « الجاحظ » غير هذه الجوانب التى حدثتك عنها ، وهو أنه كان لفرط ذكائه أحد أولئك الذين تصدروا حركة دينية قوية حين ألف مذهبه الذى جدد به من مذهب المعتزلين ؛ ولو لم يكن ذكياً ، ولو لم يكن بالغ الذكاء ، لما تعهده التوفيق فى تأليف هذا المذهب الذى بقيت له روعته حتى اليوم »

« والواقع أن « الجاحظ » كان رجلا من رجالات الدين الأفذاذ ، وكانت براعته ذات قدرة بالغة فى الدفاع عن الدين ؛ وأولئك الذين قرأوا له رسالته فى « الرد على النصارى » يعلمون أنه جمع فيها من الحجج الحاسمة ما لا قبل لأحد على جمعه ، وأنه ساق فيها من الأدلة القوية ما لا يستطيعه إنسان فى أشتات العصور »

« وأقدر « الجاحظ » — آخر الأمر — لأنى لا أعرف كاتباً غيره استطاع أن يكون متفوقاً فى الكتابة عن ألوان العلوم ، وأن تكون كتابته قائمة على التحقيق والتحليل المنطقى ، بعيدة عن التهريج والدجل »

« لقد كان « الجاحظ » واحد عصره ، وأكبر الظن عندى أنه سيبقى واحد البارزين فى كل العصور » .